" بغدادُ وقد انتصفَ الليلُ فيها" للكاتبة حياة الرايس:

السيرة كيمياءُ الروح

عِذاب الركابي

" السيرة الذاتية: شخصٌ حقيقيّ يروي قصّة وجودهِ الخاص، مُركزاً حديثه على حياتهِ الفرديةِ، وعلى تاريخ شخصيتهِ بالخصوص" – فيليب لوجون / عن الكتابات الذاتية – ص15.

" إنَّ زمنَ الرواية الأكاديميّة قدْ ولّى، وأنّكَ بالنتيجة تعبّر عن شيءٍ آخرَ، ما أدعوهُ أنا: بالرواية الأوتوبوغرافية.. رواية السيرة – الترجمة الذاتية " – هنري ميللر – اعترافات الثمانين ص69.

رواية " بغدادُ وقد انتصفَ الليلُ فيها " – سيرة ذاتية في نسقِ حكاية ..!!

و" أهمّ نقطة على الإطلاق هي الحكاية.. إنَّ الحكاية هي كلّ شيء" – كما يُعبّر هنري جيمس في "نظرية الرواية" – ص79.

والحكاية هنا حكايتان، بلْ حكايات يبدو انتهاؤها مستحيلاً، وليلها لاينتهي إلى صباحٍ، ولاتقوى عليهِ الراويةُ -"شهرزاد" زمانها وعصرها المراوغ، وكلّ حكاية في أبجدية عسيرة، تُقرأ بعدَ الكلماتِ، وتثيرُ ما بعدَ الخيالِ .. وكأنَّ الراوية – الذات الكاتبة – الساردة تعيدُ عبارة عمانويل شميت في طقوس الكتابة: " أنا أذهبُ بالمجاز لأبعد من الأسلوب، إلى الدراما حيث العملية السرديّة ذاتها"..!

أهي حكاية بغداد – ميتافيزياء المكان، وقيثارة الكون؟ أمْ حكاية ليلها الذي توقّفَ عند المنتصف وإلى اللازمان، وفقَ عقاربِ ساعةِ الوقتِ العراقيّ الحالكِ؟ أمْ هي حكاية الراوية – الذات الكاتبة وأحلامها وأحزانها بعمر المدى والأزل، والفرح لا يبدو مهنتها، ورفيقها القلق والحيرة والتشظي، وقدْ أضحت لا أحد !؟

الراوية – الذات الكاتبة من دون أي امتدادٍ لظلّ شخصيةٍ ورقية أخرى.. الذات الحقيقية بطلة النصّ السردي والحكاية معاً، كائنٌ واحدٌ بكلّ أوجاعهِ وهمومهِ وأحلامهِ وعلاقاتهِ، هي النصُّ بلا لهوِ استعاراتٍ، أو غمز ألفاظٍ، أو سياحةِ أخيلةٍ، إذ لا غرابة في ذلك مادام: " تعكفُ جميع الروايات في كلّ زمانٍ على لُغز الـ"أنا" – حسب ميلان موندیرا!

والحكاية واحدة، والرواية بعبقرية التناول، وصفاءِ حكمتِها هي كلّ ذلك! بغداد والليل والراوية، وخلفهم ظلمة شرسة وأشباحها بلا أسماء، وأمامهم عدوٌّ غادرٌ هو الزمن! وإذا كان الأغريق يصارعون القدر، فأنّ الراوية وبغداد وليلهما يصارعون الزمن!

وبغدادُ وليلها لحظة قلق! وكلاهما طفلان توأمان ماهران في الحبّ والحزن والشغب حتّى انتهاء الزمان، وقد وُلِدا من رحم تاريخ لمْ يدرك الرواة بعدُ إيقاع أبجديته وبريق فسفور حروفه وعمق بلاغة حكاياته.. تاريخ عبثَ بهِ العابثون الخارجون من الحياة والزمن، وهم شذاذ الآفاق من كلّ جنسٍ وهويةٍ وعقيدة ..!!

" بغداد وقدْ انتصف الليلُ فيها " أصلَ الحكاية، والشاهدُ ليلها الطويل الحالك، وقد تبعثرت دقائقه على وسادة الراوية، توقف عند المنتصف، وباتت لحظاته بعددِ رملِ الانتظار، ممتدٌ وفق الزمن النفسي للراوية حتى أخر نفسٍ ونبضٍ في الرئة، وآخر سيمفونية حزينة يعزفها المدى.. والراوية – شهرزاد عصرها ترواغ زمنها بالكلماتِ، وإقامةِ العلاقات الصباحية، بمفردات الماضي البعيد – القريب.. بالذكريات وقد أضحت جراحاً غائرة، تؤلمُ وتوقظُ وتبهجُ في الآن و" الرواية استكشاف الحياة الداخلية للإنسان" – كما يقول ريتشاردسون:

" مَنْ قالَ إنّني أهاجرُ من بلدٍ إلى بلدٍ؟: لستُ أقيمُ سوى في اللغة، وأسكنُ الحرف والمفردة، وأتوسّد الجملة، وأتبسّط وسع الفواصل والنقاط" – الرواية ص12.

الرواية مطلعُ قصيدة هاربةٍ من طقوس الأقدمين، لاتظل الطريق إلى قوافيها وجملها المارقة الرشيقة .. هكذا وجدتني في البدء أقرأ نصّاً شعرياً متمرّداً، لاتمتّ كلماته وقوافيه وموسيقاه بصلةٍ لقواميس ورؤى الأسلاف، وبدت لي أبجدية السرد narrative مانحة، ماتعة، لا تكتفي بإيقاظ والعبث في المواطن الساكنة والخاملة في النفس، بل ولها القدرة على أن تكونَ عابرةً للنفوس.. والسردُ الروائي، بكونهِ الشعريّ، عابراً للأزمنة أيضاً !؟

" بغدادُ وقدْ انتصفَ الليلُ فيها " بوحُ confidence الذات المتشظية أملاً وألماً، فرحاً وحزناً، حاضراً وماضياً، وجوداً وعدماً.. سردٌ حكائي حسنُ التماثل semmetria حيث لاتفريق بين السارد والمسرود، والكاتبة – الساردة- الناصّة textor كائن نصّي، يفيضُ ببلاغةِ وحشةِ الروحِ، وقد اضطربَ نبضها باضطراب مكانها وزمانها.

الرواية نوعٌ من كتابة – الذات أو " تمارين الذات في شكل كتابة" – كما يُعبّر غوسدروف.. والسيرة الذاتية – الأوتوبوغرافية auto biography كتابة الذات بعيداً عن الخطاب الانطوائي في لحظة تأسيس وتواصل حميمي بين الذات وذاتها من جهةٍ، وبين الساردة – الناصّة textor وقارئها من جهةٍ أخرى.. وبوح الذات كعطرِ الأمّ – الوطن لايقبلُ التفاوض، صكّ صالح للتداول المشروع في كلّ بنوك الدنيا والكون، وعملتهُ التي تفوق في ثقلها كلّ عمولات الدول والإمبراطوريات والممالك – الكلمة: " قدري أن أكتبَ خلودي بالكلمة"!

الراوية صورة الأنثى – الأصل – شهرزاد أخرى تحكي تفاصيل المكان والزمان اللذين تعيش، ووسيلتها الأمثل والأرقى – الكلمات الخميرة المنتقاة لتسوّي وتحضّر عجينة الواقع، واللغة سكنُها

التي لمْ يذق عسل أبجديتها قبلها كائن آخر.. اللغة – الحلم المتلوّ بيقظة آسرة، وتبدو الكتابة للراوية هي الحياة بكلّ مافيها .

"بغدادُ وقدْ انتصفَ الليلُ فيها " بوحٌ confidence وإيحاء allusion .. !

في لحظةِ سطوٍ سلميّ على مفردات وأخيلة قصيدة نثرٍ متمرّدة، برائحة النفّري وآرتور رامبو معاً.. شعرية دافئة، كلّ شذرة ضربة في القلب، نزيف قريحة أنثى مغامرة، يتوّج موكبها الأنثوي الصاخب أملٌ قريب – بعيد عبرَ جهدٍ سيزفيّ للانتصار على الآتي والمجهول في خطوات عمرٍ نزقٍ مشاغبٍ في أحلامه وأمنياته وزحام عدد كواكبه:

" مأخوذة بشهوة الأجنحة، نجمة مغامرة في الليل التائه، أفتحُ خطّاً في الأفق، وأعدُ نفسي بأجمل صبحٍ ينتظرني" – ص12.

ومكان إقامة الراوية – الذات الكاتبة الدائم والمخمليّ الحالم – اللغة " سكن الوجود" بتعبير هايدجر، بلْ استنطاق الوجود، والمكانُ قرُبَ أو بعُدَ محض يوتوبيا :

" لستُ أقيمُ سوى في اللغة" – ص12.

" الطابعُ الاسترجاعي للسرد يُشكّلُ أحد مفاتن الحكي السير- ذاتي" – توماس كليرك / الكتابات الذاتية ص12.

والحكي هنا مزيج بديع من الواقعي – الحلمي والنستولوجي الشفيف.. روحي وإنسانيّ محض، شخصية " الأب" وعلاقتها المتجذرة بتربة الروح، و" اللغة – الأمّ " وعلاقتها بالإنساني، وما بينهما كيمياءُ الحنين، وقد بدا كالصلاة الواجبة التي لاتصير قضاءً.. الحنين إلى اللغة – الأمّ الكيان والوجود، وبدا الحنينُ فنيّاً، لحظة توهجٍ وأمانٍ وانتصارٍ منتزعة من الوقتِ، ورثتها الراوية عن "الأب" الطيبِ المجنونِ بعروبتهِ وكراهيتهِ لظلال لغة الآخر – الأجنبي .

" إنَّ المكان الذي ينجذبُ نحوهُ الخيالُ، لايمكن أنْ يبقى مكاناً لامبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب، بلْ بكلّ ما في الخيالِ من تحيّز" – غاستون باشلار **!**

والمكانُ – الحُلم بطلاً .. و" بغداد لا تشبهُ إلاّ بغداد "!

والراوية الذات – الكاتبة حالمة.. والحلم منسّق الحياة! وبغداد – المكان على شاشة الحلم بستان فاكهة الزمان، وهي تنهي الصراع الحضاريّ بين المشرق والمغرب، والسلاح اللامرئي عطرُ المعرفةِ، وعبقُ التاريخ، وصبرُ الإنسان.. لحظة انتصار وتميّز سحر المشرقيّ:

" بدا لي الفرقُ واضحاً، فاضحاً، أخذتني غيرة، لماذا أخذ الشرقُ السّحرَ كُلّهُ" – ص13.

" بغدادُ وقدْ انتصفَ الليلُ فيها ".. خطابٌ نثري خرافيّ، والسرد narrative وقد تداخلت فيه الأزمنةُ والأمكنة، ولحظة إحياء الموروث في نستولوجيا nostalgia عالية، قسطٌ من عطرِ الماضي، ولحظة تطهّرٍ وتنفسٍ للحاضر والآتي.

والراوية الذات – الكاتبة لحظة تجلٍ شعري، بوحُ البوح، وهي تُحيي ذكرى بنات جنسها في إيقاع أنوثتهن الإنساني – الحضاري، وهنّ يحفرنَ على جدران التاريخ أسماءهن المنغمة بأفعالهن وأفكارهن، فقط ليُعِدْنَ لهُ بريقه، في فضاء نستولوجي، ليبدينَ نجماتٍ باهراتِ الضوء "العباسة " و"زبيدة" و" أروى القيروانية"، والراوية امتدادهنّ الحضاري، ولسان ولغة كلّ هؤلاء.. والأنثى – حياة مغامرة ..!!

" إنَّ حياتي تتجسّد حينَ أرويها، وذاكرتي تثبتُ بالكتابة، وما لاأصوغهُ في كلمات، وأدونهُ على الورق سيمحوهُ الزمن" – إيزابيل اللندي !

والكتابةُ تبقى! تذكرة السفر إلى عوالمَ تصبحُ فيها للأنوثة سلطة كما الكتابة، حتى لو بدت في لغة تحايلٍ ومكرٍ للتفوق على سلطة الذكورة التي بدت بفيض فقهِ الروايةِ سجناً بأبواب وأقفال صدئة.. والأنثى فرسٌ جامحة، تغزل أحلامها الفتية في الهواء الطلق.. أصداء حرية الحريّة:

" كانت تلك المرة الأولى التي أسافرُ فيها، وأول مرة أركب طائرة في حياتي، وأول مرة أغادرُ عائلتي وبلدي، في قلبي ينبت جناحان أكبر من عمري ومن حدود بلدي" – ص15.

ولأنَّ " السياسة كامنة في نصوصنا شئنا أم أبينا" – كما تقولُ توني موريسون، فأنَّ حديثها في السرد narrative يأتي مزيجاً من التعلق والحنين إلى المكان، وفكرة الانتماء إلى الأصل العروبي القومي التي بدت لغتها طاغية على كينونة ومشاعر " أب" الراوية، وهو يجاهرُ بكراهيته للفرنسيين المحتلين ولغتهم، وإلى تابعهم في السلوك والأخلاق والفكر الرئيس التونسيّ " الحبيب بورقيبة" الذي يراهُ " الأب" من منظار وعدسةِ الرجلِ المحافظ والعروبيّ مارقاً على التقاليد والقيم والأخلاق العربية والإسلامية الأصيلة، وهو يتبنى الفرقة بين أبناء شعبه، فيما يدعو لهُ من فوضى في العلاقات الأسرية، باسم الانتصار إلى المرأة وحريتها، وهو في الحقيقية يدقّ إسفيناً بين الذكورة والأنوثة:

" لم يكنْ أبي يحبّ الفرنسية ولا أدب الكفّار ..

" كان أبي يحقدُ على الرئيس بورقيبة كثيراً " – ص18.

" أحد معالم سطوة الرواية، أنها تتيحُ لكَ أن تذهبَ بخيالك أنّى شئت" – هاروكي موراكامي !

"أمّي بيّه" – ضمير المكان، وفاتح الشهية للبوح cofidence!!

وحبُّها الذي تطولُ أمطارهُ الربيعية كلَّ حقولِ العائلةِ، ويفيض عطرُ قطرها على لسان الراوية، يجيء بمثابة انتصار الأنوثة لبنات جنسها.. صورة لجرأة وشجاعة الأنثى، وهي تسقّهُ ما يدور في عقلية القبيلة والعشيرة التي تتخذ من الذكورة – الرجل إلهاً – قدراً ومعابدهُ ينبعثُ بخورها في كلّ بيت ..

والراوية تجدُ فيها صورتهَا، والامتداد الصاخب لهذا السيل الجارف من الأنوثة الثائرة في نسقها الأسطوري:

" هي فقط كانت تنصتُ إلى صوت قلبها على الفطرة الأولى، "أمّي بيّه" كانت تؤمن بنفسها كأنثى.. "أميّ بيّه" تلك الأمّ الأسطورية، الأمّ الكبرى، أمومة فائضة كما "عشتار" تماماً – ص21.

"أمّي بيّه" الشخصيّة الفاعلة والمؤثرة في حياة الراوية، مصدر هذا البوح confidence في بورتريه صادق في ذبذباتِ ريشتهِ وألوانه وخطوطه، هي نبض المكان، وقلب الأسرة الكبيرة، وثروتها التي لاتنفد ومخزونها الإنساني الحنان والعطف والطيبة، والرهان على الألفة والمحبّة مصدر سعادة البيت وهناء الأسرة:

" ويوم السّعد مَن تدخل "أمّي بيّه" بيته وتبقى مرّة عنده، تدخل معها البركة والأمان والحبّ والحنان والعطاء والسّخاء، طاقة خرافية على العطاء وفيض من الأمومة لم نعرف مثله" – ص23.

"أمّي بيّه" تأنيث المكان و" المكان الذي لايؤنث لايُعوّلُ عليه" – بلفسفة ابن عربي.. صورتهُ الفوتوغرافية، طبق الأصل حين يفيض بلآليء الحبّ والحنان والانتماء، وبقدر ما في ملامحها الإنسانية الكثير من صفات شخصيات الأمهات في السينما العربية، هي في بورتريه الكاتبة شخصية سينمائية مؤثرة فعلاً، بقدر ما هي إنموذج حيّ أمثل مائز للإنسان الذي يراهنُ على المعنوي ويمقت المادي الزخرفي، يراهن على الإنسانية والحبّ والألفة أساس السعادة والتفوق في الحياة والغنى .. والجاه الحقيقي هو الحبُّ لا المال :

" كانت راضية بقدرها رضاءً خرافياً، سعيدة بنا..، وكانت زاهدة في الدنيا وفي كلّ شيء، لاتغريها أملاك ولا عقارات " – ص26.

ويُحسَبُ للكاتبة – الساردة هذه البراعة في الأسلوب الخليط البديع من نثر شعري ذي التعبير الجمالي الإيحائي إلى الواقعي السيمفونيّ ذي الإيقاع الأسري والمجتمعي والقروي الجاذب، المنغم بإيقاع شذرات فكر الموروث المجتمعي – الحياتي، فاكهة ذاكرة لايطالها صدأ النسيان.. إلى التاريخي والعقائدي في إيقاعه الفانتازي والعجائبي، مصدر الجذب والدهشة والمتعة في نصّها السرديّ.

وهناك في السرد " ضرورة الإحساس بعواطف الشخصيات عن طرق إظهار مكان سير الأحداث بواسطة كاميرا الذات" – كما ترى ديان دوكري .. !

فأنَّ كاميرا الذات لدى الكاتبة – حياة الرايس تجدُ في العمّة " دوجة" حكاية الحكاية ! يبعثُ بظلها العَطِر، وبريق كنوز إنسانيتها، وصخب همومها ليلُ بغداد الحالك، وقد وقف محتارا عند منتصفه، والراوية فريسة ذكرى، تثقل في عواصفها الباردة نبض القلب، وهي تستحضرُ لحظات حياتها بكل تفاصيلها في بلدها – تونس، عبر أسلوب التداعي أو الفلاش باك flash back أو الومضة الاستعارية

– كما يسمّيها بعض النقّاد.. لحظات استرجاع حكي ساحر، يأخذ شكل المُقبّل وفاتح الشهية فيه هذه الفانتازيا fantasia العالية، مصدر التشويق والجذب والمتعة :

" كانت عمّتي "دوجة" لاتستطيع الاحتفاظ بالضنا في رحمها أكثر من بضعة أشهر، تسقط بعدها" – ص38.

ومع العمّة " دوجة" تكبرُ مطاردة شبح الموروث المقيت، حين يعبث في حدائق مملكة الأنثى.. مطاردة مستميتة، يمتد غبارُها الخانقُ إلى غرفِ الزمان، ليطال قلبَ وحياة العمّة نفسها:

" ولكن سرعان ما طلّقها زوجها الذي كان ينتظر هذه التعلة للزواج بامرأة أخرى مغرمٍ بها من قبل " – ص39.

والراوية – شهرزاد عصرها ولحظة ثأر من ماضي الأنثى الكئيب .. ووعد بالانتصار ومحاربة وتسفيه كلّ قوانين الذكورة، وهي ببلاغة خاوية، وإعادة الاعتبار لمملكة الأنوثة حين تزهر شجرة الطموح وتبزغ نجوم الحُلم في مواقع وأماكن وممالك دافئة بعطر الأنثى – المستقبل، مانحة الحياة بقوّة، لحظتها: " يُمكن القول أنَّ كلمة " المرأة" مرادف أصيل للكلمة " الحياة" – كما تقول الكاتبة سيفتلانة ألكسييفتش:

" لو أزحنا فقط غشاء الكبت الهش عند نساء ذلك العصر، لتبين لنا حجمُ الأحلام والآمال والرغبات والاختيارات والطموحات التي قمعت، بفعل الحرام والحلال والعرف والعادات والتقاليد التي يشرّعها الذكور، المقننة بالشرع، المتسترة بالدّين" – ص42.

" بغدادُ وقدْ انتصف الليلُ فيها " .. لوحة فسيفسائية !

وكتابة في الحُلم المتلوّ بيقظة، بين الانحياز للأمل الباذخ في إغوائهِ، والثقة الزائدة بالآتي، وبينَ غزوات رُعبٍ مضنية، صناعة ونتاج ليل بغداد الطويل.. وغربة المكان، مبعث نستولوجيا nostalagie مُعذِّبةٍ:

" كلّ ما كنت أريدهُ أنْ ألتقي بتونسيات، وأسمع حكياً تونسياً يُبدّد غربتي، ولا يهمّني حيث كنت" – ص43.

ولا علاج لهذا النزيف النستولوجي المُعذِّب إلا بروشتة الذكريات ، وهي تكويننا ، وغرفة عقلنا السريّة .. وهي بوّابة هذه النستولوجيا – الحنين وقد بدت في تصورات الراوية- وهي تعاني آلام ليل الغربة - مغارة بلا حدود ولاجغرافيا ولا بصيصَ نورٍ :

" ما الذي جاء بي إلى هذا البلد الغريب البعيد ؟

تذكرت أهلي، والتفافنا حول الموقد في الليالي الباردة، ودفء أمّي وأبي واخوتي " – ص44.

وعبر هذا التعبير الإيحائي تتجسّدُ مهارة الكاتبة – الساردة في المزج بين لغة الكتابة الشفافة – السرد ولغة الكلام الشعبي العراقي الدارج على وجه الخصوص، وهي تجيده وكأنها تستعذب فسفور حروفه وإيقاع أبجديته.. تقابلها براعة أخرى في استخدام الفلاش باك flash back في إيقاع تطهيري للنفس، ومتنفس، وهي تقاوم لهيب براكين حزن مفاجيء مداهم ومثبط للعزيمة.

إنَّ لحظة الحفر في الماضي، وشاهده الأمثل " الأب" المرتبط مصيرياً في تربة بلده التي كانت تمثّل له كلّ العالم، مبعث سخطهِ على المستعمرين، وخاصة الفرنسيين الذين لايتحرج ولايخاف أبداً من المجاهرة بكراهيتهم، بل يلغي كلّ ظلٍ وذكرى لهم تدنس المكان – الوطن، معبدهُ الآمن، وهو ببخور الانتماء ونبيذ الوطنية الصادقة:

" وكان أبي يمقت الاستعمار الفرنسي" و" إنهُ لا يثق بالفرنسيين أبداً " و" الكفّار الفرانسيس" – ص46 وص47.

وبراعة الراوية – الساردة أيضاً في تمرين وتنشيط الذاكرة، درءاً لزواحف النسيان في هذه البيلوغرافيا الدقيقة للأمكنة، وما لها علاقة بنبض قلبها، وعدسة عينها، مبعث الرعشة في أصابعها، وجنون عقلها الذي غدا كتابَ ذكرى.. ببيلوغرافيا مشحونة حروفها بعبق تاريخ المكان، وخطى أناسه التي لازالت نابضة بالحياة والأمل في وطنٍ بدا مساحة في القلب، وليس جغرافيا وحدوداً وتضاريس:

" أصلُ "باب البحر" وهو أحد أبواب المدينة العتيقة الذي بقي من السّور الشرقي القديم الذي بناه الأغالبة سنة 1860، والذي كان يحيط بمدينة تونس والذي تهدّم بمرور الزمن " – ص51.

" الكتابة وليمة من الأحاسيس" – إيفون فيرا **!**

والراوية – الكاتبة بدت كَمن يسعى إلى الحفاظ على صحتهِ من خلال حِمية الكتابة – السرد حسب تعبير جوليان كاميرون، في دفقات تعبيرية جمالية نبضها الواقعي الخيالي والعجائبي وهي تلخص سنوات التكوين في إيقاعهما الجاد والطريف الهزلي معاً.. من مُعلم القرآن " سيدي المدب" وشخصيته التي بدت مسرحية، إلى مُعلم اللغة العربية " الشيخ مسعود" ووضوئه وصلاته – متنفسهُ الوحيد من تعبِ الصبية إلى فروض مدرسة البيت والأسرة، بلا عصا ولا سبورة ولاطباشير، مقررات من كتاب الحياة، "الأب" معلمها الفطري الذي لايجيد إلاّ الفرنسية التي يكرهها ويكره أهلها وبلدها إلى " أمّي بيّه" ضمير الأسرة، وحكاياها وقصصها الفانتازية الغرائبية التي تثير الخيال وتوقظه، وقد بدت للراوية – الساردة تمرين كتابة، ومبعث خيال وإيحاء أولي.. إلى قراءة أعمال عمالقة الأدب والسرد والشعر والفلسفة: تولستوي، ألبير كامو، آرتور رامبو، ميلان كونديرا، جان بول سارتر وغيرهم .. ثمّ إلى الفلسفة – التخصّص العلمي للوصول إلى الحقيقة، والإجابات عن غابة من الأسئلة العمياء، بل والنظر إلى الأشياء والكون بدهشة – كما يُعرّف سقراط الفلسفة:

" اخترت الفلسفة أيضاً للمصالحة بين الفلسفة ولغة الأدب.. بين لغة العقل والتحليل المنطقي ولغة الوجدان، والعاطفة الإنسانية" – ص67.

الموت تحت ميكروسكوب الفلاسفة حُلمٌ ..!!

وآخر يرى " الحياة ما هيَ إلاّ موت"، وبفلسفة أفلاطون " ليس الموت حياة أخرى"، ولا هو " نقطة نهاية الحياة أو اكتمالها أو هدفها" – برؤى مونتاني .. وبفقه أدبيات القدماء المصريين: " كلّ شيء منذور للموت إلاّ ما كُتِبَ" .. وبشذرات فكر الراوية – الكاتبة سلطةٌ .. والموت والولادة صراع خلود، مَن يملك السلطة الأكثر نفوذاً؟ مَن يخلد أكثر " وحكاية الحكاية يلخصها السرد – الرواية : " ومَن أطول عمراً الكتاب أمْ الولد ؟ ولماذا يموت كلّ أبنائنا، ويبقى المتنبّي حيّاً لايموت والمعرّي وابن خلدون .." – ص69.

الكائن يُتوّجُ بالولادة، وهو يصرخُ لحظتها فرحاً بعالم آخر حالم، خارج مستعمرة الرحم، والراوية نبتت بذرة الكتابة – المغامرة لديها مع لحم الذاتِ الأمّارةِ بالتجاوزِ والحلمِ .. والكتابة – الحياة لايصل تربتها الذهبية شبح الموت، هي ولادة الولادة، وخلود الخلود، وحياة الحياة، والكتابة – الحلم الرّهان، و" سيكون للكتابة معنى حتى ونحن على أبواب القيامة" – كما يقول إمبرتو إيكو !

وفي الرواية الكتابة لحظة وعي بالأنوثة – السلطة، خالقة التوازن في العالم والكون والحياة، والأنثى التي وُلِدتْ من رحم الصخر والقهر، ليست صورة لورقةٍ نحيلةٍ على غصن شجرةٍ شائخةٍ بعيدةٍ، تنتظر نهاية عمرها في أول زيارة لخريف أرعن، لأنها محرّك التاريخ والحضارة والإنسان في لحظات إغواء النكهة في الحياة: " كنت أشعرُ على صغر سنّي، أنَّ هناك خللاً ما في العلاقة بين المرأة والرجل" – ص72.

وتفرّد الأنوثة إنسانية، عطرها الباذخ ثورة على عوالم الذكورة في صيغها الجاهزة المكرورة والمفروضة بقوانين مجتمعات آيلة للزوال والانقراظ، واستحالة أن تكون قدراً، إذا ما أصبحت الحرية سجيّة الإنسان، ومعبوده بل " ربّ الأرباب" – بتعبير إبراهيم الكوني:

" ووجدتني وحيدة متوحّدة بذاتي في مواجهة الزمن والموت ، وكانَ عليّ أن أخلّص نفسي من الإقامة الجبرية في الآخر" – ص73.

والكتابة – الإبداع – السرد التعبير الجمالي لحظة الخلاص ..!!

والكتابة " الانتزاع من المستحيل" – بتعبير موريس بلانشو .. وتبقى الكتابة بسحر وهيبة المقدّس، والحرف وهو في جينات الزلازل والبراكين مشعل ثورة وتغيير وتجدّد، شمع الولادة، ونبيذ الكينونة والخلود، وحبر الكلمات هوية ذات :

" كنت أهرب إلى الحرف، لأنه سيمنحني عمراً لايفنى بالنسبة لنفسي .. كنت أتشبّث بالحرف وأتسلّح بهِ لأقوى على تجاوز ذات مهددة بالذوبان الكامل في الآخر .." – ص74.

والكتابة – عشبة الخلود التي صدأت أقدام جدّنا "جلجامش" من أجل الحصول عليها، وقد خلدته أقدم وأعظم قصيدة حبٍّ خطتها أصابعهُ كأولّ عاشقٍ، وفق إنسكلوبيديا الكون والحياة.. وبين الراوية و" أتونيشتم"- جدّ "جلجامش" رغيف الحلم الذي يظل طازجاً، قادراً على سدّ جوع الروح الظامئة أبداً إلى " عشبة الخلود" الكتابة – الحلم :

" ووجدتني أسلك من جديد نفس تلك الطريق التي سلكها جلجامش منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ...، وكما حمل جلجامش عشبة الخلود ، حملت الحرف ليكون الشاهد الوحيد على الحضور بعدَ الغياب" – ص75.

" لايمكن أنْ أكتبَ إلاّ عن الأشياء التي تلامسُ روحي حقّاً" – باولو كويلهو!

والراوية – الكاتبة – السّاردة عبر المنولوج الداخلي، وسحر استرجاع الحكي والفلاش باك المجسّد لتفاصيل حياتها، وهي تغيّر وترتّب بخطى ربيعية جغرافيا المكان، وتنتقل عبر أسلوب " السّهل الممتنع" من الواقعية الذاتية الوجدانية إلى الواقعية الانتقادية التسجيلية، وأبجديتها الإدانة لكلّ ما هو فجّ وقبيح في المجتمع من دون أن تتخلى عن إيقاعها السير– ذاتي الأتوتوبوغرافي auto biography لا تهدف إلا لرسم إشارة أو وضع خطوط حمراء أمام واقعها الدراسي الطلابي المعيش، بكل مفاجآته ومفارقاته، وعجائبيةِ شخوصه، وتفردهم بصفاتٍ تميزهم عن بعضهم البعض:

" وبالتوغل أكثر في المجتمع العراقي، وبعيداً عن المصادر الرّسميّة كنّا نسمع عن أخبار الأقليّات المضطهدة التي لم تتمتّع بوضع متساوٍ مع غالبيّة السّكان العرب في كامل أنحاء العراق، وقد ضيّق عليهم حزب البعث العربي الاشتراكي بشدة خلال حكمه رغم كلّ الشعارات" – ص83.

إلى الجانب الشخصي – السيكولوجي الذي تكشف عنه الراوية من خلال زميلتها" نيفين" غرفة أسرارها، وزميلات الدراسة الفتيات العراقيات والعربيات، وهي ترسم بورتريهاً متقناً فاضحاً لكلّ واحدة من اللاتي اقتربت منهنّ، بخطوط كبيرة، وألوان فاقعة، وربشة جريئة، ولحظة براعة في القفز في بئر دواخلهنّ والتجسّس بمهارة، عما تفيض به قريحة كل واحدة من تبرّم وضجر وانتقاد للحياة العراقية بجانبها الاجتماعي والحياتي والسّياسي معاً.. و"نيفين" قريحة ضاجة بالانحياز العرقي والديني:

" وطفقت تحدثني بمرارة كبيرة عن مجزرة "سميل" بشمال العراق في بداية القرن الماضي 1933 التي تشرّدت بسببها عائلتها مع مئات العائلات، بسبب النزوح إلى سوريا حينها هروباً من شمال العراق" – ص97.

ولايخلو بوح الراوية مما تضمرُ نفسيات زميلات الدراسة من رسم خطوط متعرجة، ينضح حبرها بالصراع الطائفي، وهنّ يشرعن بمذبحة للتاريخ والآثار والأحداث والناس، فقط إثبات أحقية طائفة من دون الأخرى للتاريخ والأرض والوجود الشرعي:

" هؤلاء لايعرفون من كربلاء غير العتبات المقدّسة، ولكنها تحتضن أقدم كنيسة في العراق، كنيسة "الأقيصر" وتشير كتب التاريخ إلى أنها تأسّست قبل 120 سنة من ظهور الإسلام" – ص98.

وما بينَ المشرق والمغرب من تفاوتٍ طبيعيّ بيئيّ في حميميّة اللغة – اللهجة الدارجة، والعادات والطباع والأخلاق، وحتّى الملامح، كلّ ذلك رتّبت لهُ ظروفهُ الحياتية والمجتمعية والبيئية النسق

الملائم لهُ من الحياة المرتبط بها بترمومتر الروحِ الذي يتحكّم بحركة مؤشر زئبقه عقارب ساعة الواقع المعيش:

" تلك طباع الناس في المغرب العربي: جفاف وأسلوب ناشف في الكلام وفي الحياة بعيداً عن المجاملة.." في حين أنَّ المشرق العربي تختلف طباعه تماماً عنّا، تُطرّز وتزيّن المجاملة نسيج حياته الاجتماعية، بكلّ التلوينات الزاهيّة التي تشرح القلب وتفتح النفس" – ص104.

" بغدادُ .. وقد انتصفَ الليلُ فيها " الرواية – السيرة الذاتية الأوتوبوغرافية auto biography كتابة الذات والنصّ وصوغهما إنسانياً معاً، وقد أظهرت الكاتبة– الساردة براعة في أنسنة النصّ السردي، وتهذيبه، وتنغيمه باللحظات الجوانية للإنسان.. يقولُ النقّاد أنَّ: سيرفانتس هوَ أول مَن أنسن humanismالنصّ الأدبي، وسرقهُ من الآلهة الغريكو – الرومانية !

والرواية تُقرأ وفق ذلك المفهوم كتاباً سيكولوجياً، نزيف روحي، خطته أصابع الراوية المحاصرة بغربة المكان والشخوص معاً.. والاغترابُ طوعي، تخفّفُ من عواصفِ بردهِ وثلجهِ نسماتُ الطموح المنفلتة من فضائها والمراوغة لوقتها، تفصحُ عنهُ حروف وجملُ الرواية، وفي مقدمته هذا التباين اللساني بين المواطن المغربي والمشرقي في اللهجات والعادات من دون إلغاء لوليمة الأحاسيس والمشاعر الصادقة المتبادلة التي جُبلت عليها روح الإنسان العربي أينما كان وعاش.. وذلك الاغتراب المكاني والروحي هو من صنع الجغرافيا البائسة التي وضع خرائطها المقيتة المستعمرون من فرنسيس وإنجليز وطليان وغيرهم :

" وبعضهنّ يقتربن منّي، ليسمعن غرابة وطرافة لهجتي، ويكدن يلمسنني، ليتأكدن أنهُ لي نفس اللحم ونفس الدم الذي لهنّ " – ص107.

ولكن وسط هذا الضجيج التعبيري القطري – العامي المستعذب لدى كلٍ منهن ، تمتلك الراوية ، وهي الكاتبة المبدعة القدرة والذكاء الكافي المشحون بالشوق والرغبة معاً كيْ تتقنَ فقهَ تلك اللهجاتِ أو تخلق لغة وسطاً – كوكتيل ، تعبيرا فسيفسائياً من جميع تلك اللهجات ، ممُوسقاً بفرح الصحبة وعطر المكان الجديد الموصول بالقلب والعين معاً:

" يهزّني طربُ الشرق كلّه، وتعظم في عينيّ لغتنا العربية التي تهتزّ وتتمايل بأكثر من نغمٍ، لأكثر من بلدٍ، لكلّ هذه اللهجات المنبثقة، كينابيع منحدرة منها، المتفتقة عنها، والمطعّمة والمرصّعة بلغات الحضارات السابقة عنها" – ص113.

وتماهياً مع المكان الذي تعيش وتقيم فيه الراوية، وهي تتننفس عبق التاريخ السومريّ –الآشوريّ العريق ، وتبهرها صلابة وشجاعة إنسانهِ، صانع الحضارة والتاريخ والحياة والإنسان، تنبض شرايين قلب الراوية بدفقات حبّ وإعجاب، ممزوجة بالفخر بحضارة العراق تارة، والحزن تارة أخرى نتيجة العبث بمفردات هذه الحضارة – مرآة التاريخ في عراق مابعد الحرب، وقد غدا الإنسان والحضارة والوطن صيداً .. لعبة لأمزجة السلطات الحاكمة المتوّجة بالغطرسة الفارغة، وتأكيد وتضخيم الذات،

إضافة إلى كيمياء الحروب المفتعلة، وقد حوّلت الإنسان – المواطن حامل مشعل الحضارة والعلم والتقدم إلى وقودٍ .. بل مسخ يفوق في تكوينه وهيئته مسخ – كافكا:

" وكانت هناك عمليّات مُبرمجة لتهجير العقول العراقية باتجاه الغرب" – ص115.

" ما نفعُ حياةٍ بلا حُبّ" – لويز دين !

ولم يبق أمام الراوية – الساردة إلا صنع فضاء مخمليّ، في الحج والصلاة لـ" إله الحبّ " الذي رأى إنطونيو تابوكي في " سيدة ميناء بيم": " معبدهُ يرتفعُ على جزيرة لها شواطيء شقراء ممّوجة على رمال فاتحة يحفّها البحرُ".. ! والراوية بين الحاجة إلى لحظة حبّ – إكسير الحياة، ورهبة ورعب غيوم السياسة السوداء، وخاصة عندما يدير ماكنتها الصاخبة في صوتها وصدأها الحزب الحاكم، وإلههُ – الأخ الكبير بتعبير جورج أورويل.. رُبما في خيال الراوية - الكاتبة الحالمة، أن تجعل من بغداد " فيرونا" أخرى التي سمّيت لدى الإيطاليين " مدينة الحبّ "، وقد خلدها الشاعر العظيم شكسبير في قصّته الشهيرة " روميو وجوليت".. فهل يُمكن أن تُخلّد الراوية – الكاتبة مدينة بغداد بقصّة حبٍ أخرى!؟ ليظل صوت – إله الحبّ يتردد في صدى لانهائي، يستولي على مَن يسمعه، فيعطيه انتشاءً أو ذهولاً – كما يرى تابوكي.. ولكنها الآيديولوجيا – السجن، والحبّ – الحرية نقيضان، فتهزم السياسة العاطفة التي لاسلطان عليها برؤى الفلاسفة، وتعلن فراشات وورود الحبّ عن هزيمتها النكراء:

" كنتُ أنتظرُ منه كلاماً ناعماً، وهمساً يتناغمُ وهمس الموج في نهر دجلة أمامنا، وغزلاً وشعراً، لا تضخماً استعراضياً للذات البعثيّة، ولغة خشبيّة، ومصطلحات سياسيّة محليّة لن يفهمها أحد خارج العراق" – ص120.

وبدلاً من قصيدة الحبّ، وأغنية الحياة، تفيض قريحة الراوية بهذا السيل الانتقادي الواقعي لحياة العراق والعراقيين، فترة " الحزب الحاكم " و" الأخ القائد" الذي أخذ شكل الانطباع، ولم يتعد أيضاً أن يُقرأ كصورة فوتوغرافية مؤذية لواقع المعيش .. وهي تحاولُ الهروب ممّا يُفكّر بهِ محدثها "الحبيب" الحزبي البعثي، المستميت في كسبها كعنصرٍ جديدٍ في صفوف الحزب.. وكانت أداة مقاومتها الأسئلة التي غرستها في لحم ذاكرتها الفلسفة – لحظة النظر إلى الأشياء والكون بدهشة، حسب تعريف سقراط.

والراوية وهي تجدُ نفسها في خضم عواصف هوجاء، تعبث في أمور الناس وحياتهم، وسياسة تربك الدولة بصيغ ونصوص حزبها وقوانينها، وخطب القائد الأوحد، والبلد يعيش أزمات خانقة من خلال وسائل الضغط الخارجي الغربي، ومحاولة تركيع العراق، عبر مؤامرات يومية دائبة، فقط لتجويع شعبه، وفرض الحصار الاقتصادي، والهدف الأمثل هو السيطرة على ثرواته وبتروله:

" كانَ يحدثني ويطنب في الحديث عن الاشتراكية في العراق.. وأنا استعرض بذهني طوابير الناس المزدحمين على البقالين من أجل تحصيل طبقة بيض تحوي ثلاثين بيضة أو علبة حليب " – ص126.

الرواية " بغدادُ .. وقدْ انتصفَ الليلُ فيها" هوسُ سيكولوجي جاذب لكتابة الذات بلا زخارف أو لهو مجازٍ واستعارات ولعبة كلماتٍ.. وهي داخل الحرم الجامعي امرأة العلم – الفلسفة والأدب مفضّضة بنسمات العلاقات الإنسانية التي تقذفُ بعطرها ورود المكان .. وكانت أولى هذه العلاقات التي أثّرت في سير مجرى نهر حياتها، بل ورتّبت قطرات النور في دهاليز حياتها الدراسية والإبداعية معاً، شخصيّة " مدني صالح" – الملقّب بـ" سقراط بغداد" الأستاذ الأكاديمي والكاتب والفيلسوف الأقرب إلى صورة " ماينوتور" هذا الوحش الدموي المخيف الذي كان لهُ رأس ثور وجسد إنسان – حسب وصفها .. والراوية داخل بيت الفلسفة المخمليّ، وقاعة المحاضرات امرأة أخرى أمام هذا الفيلسوف – المخلوق الأسطوري، وهي أسيرة عقلهِ وعلمهِ وفكرهِ:

" تعرفين أنَّ الإنسانَ ليسَ ببشرٍ كلّه، بل مزيج من هذا وذاك" – ص132.

" إنّهُ يصالحُ الفلسفة مع الأدب.. حرّرَ عقولنا، وعلّمنا ألا نخاف من تفكيرنا ومن الأسئلة " ص140.

وكان ثمن هذهِ العبقريّة، والإنسانية العالية، وإخلاصه ووفائه لفكره وعلمهِ ومواطنته ووجودهِ التهميشَ والجوعَ، مقابل نسمات الكرامة وعزة النفس التي تقذف بها فضاءات غامضة وجهولة: **" واضطر في أواخر أيام شيخوخته إلى بيع بيته وأثاثه وسيارته وكتبه، لتوفير لقمة العيش لعائلته، لكي يتجنب مذلة السؤال أو الوقوف مستجدياً على عتبات الحكام، فظل شامخاً زاهداً طاهراً حتى توفيَ – رحمه الله – سنة 2007" – ص142.**

أما خليفة " مدني صالح" في التأثير والانجذاب له هو " د. ياسين خليل" مفكّر وعالِم آخر من أعلام الفلسفة الذي غرفت الراوية من بحر علمهِ أثناء دراستها الجامعية ببغداد، هو الآخر دفقة علمٍ جاد واطمئنان وإنسانية عالية، ليس مجرّد أستاذ فلسفة، بل فيلسوف، حامل شعلة التنوير كغيره من فلاسفة بغداد – دار السلام إذ: **" لكلّ منهم مقامٍ سامٍ في وجداني وفي عقلي" – ص145.**

والراوية وهي تحاول اختصار ليل بغداد، بعطر العلاقات من كل نوعٍ، زمالة وصداقة مقرونة بنوبات إعجاب وحبّ تارة، وإشفاق تارة أخرى.. زملاء الدراسة من بنين وبنات، تتضح ملامحهم من خلال بورتريه صاخب في خطوطه وألوانه وإيقاع فرشاته، ممّوسق بشذرات الحبّ والحميمية.. وأحياناً تطفو على سطح مياه هذه العلاقات فقاعات العرقية، تبرق بدواخل نفوس ممّن ينتمون إلى قوميات أخرى غير عربية في العراق. " سرحد قادر" النموذج الأمثل، وهو يفيض بمشاعر السّخط والغضب على واقع وتربة وأرض ووطن هو جزء منه، ولم ينقصهُ حقّه في الحياة والتعليم والوجود:

" عيناه كانتا تفيضان بحكي يتعطل به لسانه..!

قالَ لي: مستحيل الواحد يكون مرتاحاً في العراق، إنْ لمْ يكنْ بعثياً" – ص148.

وهناك مَن يعلو لديهم النبض العرقي من القوميات الأخرى، وهم يعيشون رعب إحساسهم بالاضطهاد، وبدا بحكمة الرواية أسلوب جذب للآخر إلى قضيتهم حتى لو أفقدهم صورة إنتمائهم إلى الأرض والوطن الواحد، بل كانوا يوحون لمن يحدثونه إنهم ليسوا مواطنين عراقيين.

" إنَّ السيرة الذاتية تتميزُ بالقصدِ في قولِ الحقيقة" – توماس كليرك / الكتابات الذاتية – ص 25.

لمْ أفاجأ بالفضاء السياسي الخانق في العراق، وأنا من أسرة اكتوت بنيران السلطة والسيطرة وفوبيا الحكم وإثبات الوجود، وتضخّم ذات السياسي، وأراحني البورتريه الذي رسمه الروائي المكسيكي كارلوس فوينتس في رائعتهِ " كرسي النسر"، بكلّ ما في هذا الفضاء القاتم من كمائن ورعب وبشاعة عدوانية القوة التي " لاتريدُ سوى إرادتها" بتعبير ميلان كونديرا، ووفق رؤى فوينتس: " يعتقدُ صاحب السلطة دائماً أنهُ على حقّ، وأنَّ مَنْ يعارضهُ خائن، أو على أقلّ تقدير شخص لا لزومَ له" – كرسي النسر / ص44.

وقولهُ:" في السياسة تُبتلعُ الضفادعُ من دون أن ترمش" – كرسي النسر/ ص262.

والراوية – الكاتبة شهرزادُ عصرها، وهي تعيش على ضفاف دجلة، فوبيا السلطة، والرعب وحكم الحزب البورجوازي بالحديد والنار، وأجهزة التصفيات اليومية المعلنة والخفية، كانت من أوضح ملامح العراق في السبعينات والثمانينات وما بعدها.. وهي تعيش لحظة وعي بشروط المكان الذي تقيم، وديكتاتورية الزمان السياسي – الحزبي حينَ يحكم، يتجبّر، ويتسلط، ويحكم وفق سلطة القوة، وقوة السلطة معاً:

" كلّ شيء يوظف لفائدة حزب البعث سياسياً.. كانَ الجوّ مشحوناً بنوعٍ من فوبيا الاستخبارات التي لاتعرفها إلاّ الأنظمة العسكرية الاستبدادية، فوبيا جهازٍ المخابرات العراقي" – ص155.

والراوية وزميلات الدراسة العربيات يتاقسمنَ سرّاً وعلانية حياة الحذر والحيطة والحزن أيضاً، زمان إقامتهنّ فوق تربة وادي الرافدين الذي صُودرت فيه حتى النسمات، بل تمّ تأجيلها كما أحلام الناس البسطاء.. زمان مشحون بزلازل وبراكين القلق اليومي من هواجس وحدس الروح، حين يحكم حزبٌ فاشي، قمعي، سليل الإقطاع والتجار، ورموزه ومنتسبوه يتجسّسون على قلوب الناس، وتصبح في ذلك الزمان، ودقائقه فاكهة أعمارنا، للضحكة الخجول، والدمعة الحجرية تأويل آخر، وقد تأخذك إحداهما إلى الاعتقال، وربما الاختفاء نهائياً حسب آيديولوجيا الحزب الحاكم:

" وقد دخل الشعب العراقي في هوسٍ جماعي، بسبب الخوف من هذا الجهاز الجبّار.. فصار الكلّ يشك في الكلّ، الكلّ يخشى الكلّ، الكلّ يتوجس من الكلّ، الكلّ يشي بالكلّ، الكلّ يتهم الكلّ، الكلّ يخون الكلّ، الكلّ يتجسّس على الكلّ، فوبيا جماعية طالتنا نحنُ كذلك" – ص158.

ورئيس هذا الجهاز الحديدي في العراق يعلو صوته، ويراوغ حتى صلاحيات الرئيس نفسه، ليبدو زمان العراق، عراق " عشتار"، و" نبوخذ نصر" و" جلجامش"، خارجَ أحلام البشر والشجر، وما تفيض به زرقة نهريه العظيمين دجلة والفرات، وأدعية وحسرات أناسهِ الطيبين، والخوف والقلق والموت المجاني دستور جديد للبلاد، وفوبيا السلطة المستبدةِ بلا حدود :

" هل يُمكنُ أن تكونَ أحلامنا مراقبة ومستباحة أيضاً إلى هذه الدرجة؟ - ص160.

" في الصباح نسمعُ بعض العراقيين يتهامسون عن اختفاء بعض الأشخاص الذين لنْ تجدَ لهُم أثراً بعدَ ذلكَ أبداً" – ص128.

ومادام الناسُ الذينَ يفعلون الأسوأ في العالم، لا يأخذون إجازة – كما تنصّ المأثورة، فلا بدّ للرواية أن تتسلّح بروح دون كيشوت، وهي تواجه طواحين هواء من نوعٍ آخر، حين بدا الغرامُ في السلطة فرض عينٍ، وهي بحاجةٍ إلى شجاعةٍ غير مسبوقة، إذا صحّ قولٌ – ستندال بانَّ " ثلاثة أشياء: النساء، الفرسان، السلاح" مبعث الشجاعة والجسارة، فقط لتقتطع وقتاً من كنز الروح الطامحة إلى الجديد، والذات – الكاتبة أمّارة بالتجاوز والتفوّق والتميّز.. لحظات رومانسية طارئة، تسرقها في غفلةٍ زمنٍ قاسٍ مع المدعو " فارس" الطالب الحزبي، شديد المثابرة، وقد بدا بفقه السرد، حبيباً افتراضياً.. لحظات رومانسية قلِقة على ضفةٍ يغمرها الضباب – حسب تعبير بودلير:

" وكنتُ أحلمُ برحلة تحتَ ضوء القمر، يخطفني إليها فارس..ألعنُ في سرّي كل اجتماعاته الحزبية ونشاطاته السياسية التي تأخذه منّي دائماً" – ص169.

ومن ثمّ إلى وقتٍ مخمليّ آخر في حسابات الذات – الكاتبة، رؤى وأحلام، للتأليف والتميّز من خلال تمرين على الكتابة.. والتمرين الأول في غرف ودهاليز الصحافة العراقية التي بدت أول الأمر طويلة وحالكة، ولكنها تمرين مفيد وممتع، كبوّابة من ذهب للدخول إلى عوالم السرد المتقن بأنواعه القصة القصيرة والمسرحية والرواية، والبداية مذهلة بكلّ ما فيها من مغامرة وجرأة قرار البدء مع " ألف باء" المجلة العراقية الأكثر شهرة وانتشاراً في العراق والدول العربية.. وعلاقات حميمة مع العاملين في المجلة، بل والصحافة العراقية عامة:

" وشخصياً أنا أدين لمجلة – ألف باء التي لم انقطع عن الكتابة فيها حتى عندما عدتُ إلى تونس في أواخر الثمانينات سنة 1989 بالذات" – ص186.

وقد كانَ للعمل الصحفي – تمرين الكتابة الأمثل فرصةً عظمى للتعرّف إلى كبار المبدعين والكتّاب والروائيين والنقّاد العراقيين والعرب أمثال: ماجد السامرائي، وجبرا إبراهيم جبرا، وعبد الرحمن منيف.. وبنزيف قريحة الكاتبة – الشاعرة – الروائية الممّوسقة بكل نغمات الحميمية والدفء البشري والمثابرة للسير في قوافل الجديد، ومواكب التألق، ترسمُ بورتريهات بألوان هادئة، وخطوط ذات ظلٍّ إنساني – إبداعي، وريشة لاتتخاذلُ من كرستال الروح المحبّة للإبداع والمبدعين، يقفُ في مقدمتهم الشاعر – الروائي – المترجم جبرا إبراهيم جبرا: " ابن البستاني الذي كان يعنى بحدائق – دير المحبة- الراهبات في بيت لحم، ورث عن أبيه حبّ الزرع والبذار والعطاء والخصب، لكن في حقول وحدائق الفكر والأدب والإبداع والفنّ" – ص191.

وما لهذه الشخصية الإبداعية المتميزة من دورٍ في إيقاظ براكين الكلمة والإبداع ، وتنغيم القريحة بشذرات الكلام، وتهذيب الأصابع بكل تأثيرها الإنسانيّ – الإبداعي على حياة الراوية – الكاتبة: " شوفي حياة، أنت لازم تكتبي شي يوم الرواية.. أحسّست كأنَّ هذه الجملة كُتِبَت على جبيني من حينها " – ص192.

ومن خلال صفاء ونقاء روحه، وحميميته الباذخة في عطرها، وإشراقة وجههِ الباسم، الدافق بأنهار الأريحية، والتجاذب مع الآخر، تحاورُ الراوية – الكاتبة في شخصهِ أبطال رواياته الذين أغلبهم يشكلونَ حياته، بل جزء منها كـ" مسعود" الشخصية الشديدة القرب منهُ، بلْ " أناهُ" حتى التماهي وتفاصيل حياته إذ " لايُمكن للكاتبِ إلاّ أن يكتبَ عن حياتهِ الخاصة" – كما يقول باولوكويلهو :

" فالبحثُ عن وليد مسعود، هو البحث عن جبرا بن مسعود" – ص193.

وما لهذا المبدع الكبير من دورٍ في تحريك المفاصل المعطلة في جسد ثقافتنا العربية والعراقية على وجه الخصوص، وهو وصولجانه الذهبي الإبداع والفنّ يُؤسّسُ لعلاقاتٍ إنسانية – حضارية مع شوامخ الإبداع والثقافة والفنّ في العراق فترة الخمسينات والستينات ومابعدها :

" فقد ارتبط جبرا ببغداد المدينة والبشر والثقافة والفنّ ارتباطاً وثيقاً حتى غدا من نسيج المدينة التي كانت تزخرُ بالوعودِ في كلّ شيء" – ص194.

ومع المبدع الكبير – عبدالرحمن منيف أيضاً، تتجدّدُ حكاية الإبداع والكتابة والسرد، تتوجها علاقة المبدعين حين يوضَعُ لها حجرُ أساس الصدق، وتفيض بعطر الثقة، وتزهو بورود الرؤى المتبادلة، و" منيف" و"جبرا" المثال الذي يُحتذى في الفضاء الثقافي العربي، وللمبدعين العرب الذين غيّبتهم عواصف الأنانية، وحبّ النفس، وتضخم الذات، وبدا واقعهم الثقافي أشبه بمرآة مهشمة، حين سادت بينهم مشاحنات إثبات الوجود، والأحقاد، والغيرة، والمؤامرات على بعض في أشكالها البشعة المقيتة: " وقدْ كانا يكتبان حينها رواية مشتركة هي " عالم بلا خرائط" – ص200.

ولا تنسى الراوية – الكاتبة دورَ عبد الرحمن منيف المهم، وهو يؤسّس بشجاعةٍ لنوع من الأدب القليل والمحظور في ثقفاتنا، وهو " أدب السجون"، ليكون إنموذجاً في السرد العربي، وإضافة مهمة لكلّ ماهو ممنوع ومحظور ومسكوت عنهُ: و" سباق المسافات الطويلة 1979" تلف اهتمام النقّاد والقرّاء كأخطر ما كُتِبَ عن الأنظمة القمعية العربية" – ص201. بالإضافة إلى دوره في ترسيخ فكرة " الكتابة المشتركة" في سردنا العربي، وما تحتويه من أسرار وخفايا في تقنيات الكتابة التي بدت – وقتها- جديدة على الواقع الثقافي – الإبداعي العربي .

" الحربُ هي هذا الحيوانُ الخُرافيّ الذي قبلَ أن يلتهم الرجال يُفرغُ جيوبهم رجلاً رجلاً ، عملة وراء عملة، حتّى لايضيع شيء، وينتقل كلّ شيء" – ساراماجو / ثورة الأرض – ص79.

والحرب صناعة الشياطين والمجانين، ومَن وضعوا ضمائرهم فوق رفوف متربة قديمة، رغبةً في السيطرة وبسط النفوذ، رافعين رايات الانتصار وهيَ بطعم الهزيمة، وهم ينعمون بفرحٍ زخرفيّ، ويخسرون الحياة والإنسان والأرض والزمان.

والراوية – الساردة ومفارقات بين الواقعي والمتخيّل والعجائبي في أتون حربٍ مفتعلة، حرب الخليج، حرب الثماني سنوات المقيتة، لا يعرف الإنسان العراقي خلالها إلاّ رائحة الصدأ والضياع والموت بنوعيه المادي materialistic death والمعنوي spiritual death، حرب استعجلت الأقدار فيها

لحظات الجحيم والحساب الدنيوي للمواطن العراقي البسيط الآمن، وقد أضحى وقوداً لحربٍ لا ناقة لهُ فيها ولا جمل:

" وكنتُ قد وصلتُ إلى مرحلة من القلق والانتظار والفراغ والمصير المجهول لاتطاق"- ص208.

والحرب بفسفور حروف الرواية أيضاً، غول الحياة، بل تنين بألف ذراع ولسان، قد غيّرت في خرائط الروح، وحفرت وشماً فيها.. وسؤال الساردة والمسرود: هل غيّرت الحرب في منجم الحميمية والألفة الذي يقيمه العراقي في أعماق الروح؟ وهل أربكت ضربات نبض الأمل في قلب بغداد؟ وعبر الإيقاع النستولجي في السرد، تأتي الإجابة بصيغة السؤال نفسه:

" هلْ مازال العشاق يتهامسون بشوقٍ في شارع أبي نؤاس – شارع العشاق؟.. كيف يسير الناس في الشوارع أيام الحرب؟ هل يتزاورون كالعادة؟ كيف يتصرفون في بيوتهم" – ص209.

حينَ تُحوّلُ الحرب، بكلّ جنونها، مدن الحياة إلى مدن موت، يصعب عليها مهما عظمت كيمياء جحيمها أن تصادرَ الأحلام، أو تقتل الحبّ، أو توقف بزوغ الشمس على حدائق الحميمية المزروعة في روح الإنسان، مهما اختلف المكان وتغيّرَ الزمان.. ولم يبق أمام الحرب اللعينة إلا أن تغتال نفسها في رمادها، وهي توقظ في أجساد العراقيات ألف عشتار وعشتار: " أحسّست حينها، أنَّ عشتار – الأمّ الكبرى هي التي تتكلم" – ص212.

" إنَّ تصوير الواقع لايتحقّق إلاّ من خلال النفاذ في قلبِ الشيء" – توماس هادري!

وعراق – الحزب الحاكم في واقع سريالي فاضح، مفارقاته يصعب ترجمتها، حين تتعذر أمطارُ الكلمات، والراوية بين الحرب - تنين الوقت الضاري بخطى الموت، والحبّ – الطائر الملون المغرّد بالحياة.. حين ينتصر الحبّ، وتضاجعُ الحربُ نفسها بخططها الجهنمية ورصاصها وصافرات إنذارها، وظلمتها، وأشباح مَن يوقدوا نيرانها.. لم توقف الحرب نبض العراق الحضاري– الإنساني، حين تقيم بغداد على أصوات الرصاص كرنفالات للكلمات والإبداع، لحظة زهوٍ للرواية، وهي تزيل صدأ الرعب، بلحظات فرحٍ صوفي، وهي تعيش وتستنشق عطرَ نسمات هذه الفضاءات الثقافية والإبداعية، وتتواصل معها داخل العراق وخارجه، لتشعر أنها جزء من ثقافة أصيلة – أداة مقاومة بحق:

" لم تنقطع علاقتي بالعراق حتى بعد ما تخرجت ورجعت إلى تونس، صارت تأتيني الدعوات في مناسبات ثقافية، كأديبة وصحفية" – ص227.

" الحرية المرادفُ للوجود" – سارتر !

وبطل سارتر " جوبتير" يقطعُ نهرَ الزمان حاملاً حريتهُ على كتفهِ، كصخرةٍ ثقيلةٍ ..!!

والراوية بلغة الروح والجسد تكتب في صحيفة حياتها: ليس إلا الحرية!

بعد فضاء بغداد الحميمي، يوقد في روح الكاتبة الطموح الرغبة في السفر – المدرسة الثانية كما يسمّيه الفيلسوف الفرنسي ألان.. وهو كتاب جديد في بلاغته، ولابدّ من قراءته بطريقة " الحفر" التي يدمنُها ويوصي بها صديقنا الروائي – إبراهيم الكوني.. ولابدّ من تغيير المكان درءاً لفيروس الغدر والخديعة.. وباريس بوّابة الحلم الورديّ، بعدَ بغداد – الذكرى الأجمل، حتى لوْ بدا بفقه السرد لحظة ثأرٍ من المكان الأمّ – تونس، حين يتبخر عطر الحنان، وتحتجبُ شمس الدفء، وتثلج الأحضان، والحبّ كرهان يبدو كأمطار الصيف.

ولايبدو أنَّ هناك مكاناً آمناً غير مفضٍ للحزن بحكمة الرواية ..!

والراوية – الكاتبة في بوحٍ جارحٍ، مميت لنبض الحياة في لحم الروح الطموح التي قبلتها التي لا يُمكن تغييرها: الحرية، وقد أُلِفتْ بفعل كهرباء الكتابة والإيحاء والإبداع رقصة الفرح ونغمة التواصل .. كلّ ذلك الذي يشبهُ الحلم، أربكته بشاعة الآخر -" الزوج" الذي التقتهُ في كرنفالٍ بأضواء حزينة، وخطى بهجةٍ تغادر المكان، حين وجدت نفسها في فخٍ .. وليس ظل حبيبٍ، وهو في إيقاعه الحياتي الزخرفي إخطبوط بائس، كلّ حركة تصدر منهُ قاتلة للعاطفة والحبّ والحياة والسعادة والأمل:

" كنتُ أحسّ أنّني تورطتُ بهذا الزواج النّحس، وبقيت أفكّر كيف أخلّص نفسي من هذا الأسر الذي وقعت فيه" – ص234.

و" يبدأ الحزنُ عندما تنتهي الرواية" – بتعبير إمبرتو إيكو!!

ليستمر، ورّبّما يصبح أكثر بشاعة وحيرة وقلقاً على أوراق رواية أخرى، اسمها سيكون أكثر حيّرةً، حين يستفزّ الراوية – الساردة بياضُها الناصعُ:

" والتمعت في عينيّ باريس.. وراودني حُلم عمري مرة أخرى، وعُدت أحلمُ بها، وأحلمُ بالعمل في الصحافة بها.. وسافرنا إلى باريس.. وهذه رواية أخرى" – ص237.. ربّما " الواقع هو الذي يعجن تلك الجمل" – حسب تعبير جون هوبكنز !

" الإبداعُ تاريخُ للواقع، أوْ التحولاتِ أوْ المشاعر" – بول بولز!

الكاتبة – حياة الرايس في روايتها : " بغدادُ وقدْ انتصفَ الليلُ فيها" تاريخ واقع ومشاعر معاً، عبرَ النسق الأوتوبوغرافي في الكتابة التي تنتمي تماماً إلى الكتابة البصرية.. تكتب وتصوّر في الآن كما تتحدث! .. والرواية بكامل فصولها، لحظة تشكيل سيكولوجي للشخصية الرئيسة الراوية – الكاتبة والساردة، لحظة صدقٍ في نسخِ الـ" أنا" في كتابةٍ إشكالية، تجمع بين (قول النفس – قول الحياة – قول الزمن) والولادة من خلال الكلمات: " كنتُ اقول لنفسي : هذه طريقة جديدة للحياة، إنَ اكثر ما أعشقهُ في الحياة الكلمات" – آندرس نيومان.. وبينَ البوح المضني، وهي تفتحُ الضوء على دهاليز وخبايا النفس، وبينَ الأبعاد التحليلية للواقع المعيش .

سيرة ذاتية – كتابة الذات .. وحالة استعادة العلاقة بين الكاتبة – الساردة وبين ما تكتب – المسرود في لحظة تماهٍ، وتطابق كلّي- ليس بحاجة كبيرة إلى كدّ ذهن – بين الراوية والساردة في إيقاع سيري أوتوبوغرافي : " أيها القاريء، هنا ستجدُ كتاباً صادقاً، ها هنا صورة إنسان، مرسومة عن الطبيعة بدقةٍ في كلّ حقيقتها " - جان جاك روسو !! ..

وهذا يُحيل المسرود – الرواية إلى فضاء سحرً وجذب ومتعة، بمشاركة عواطف كبيرة ضاجّة في حرارتها، منحت الرواية – السرد narrative كلّ الثقل الموحي، عبرَ لعبٍ لغوي تعبيري باذخ في بساطته، مانحٍ وجاذبٍ، حيث انصهرت الأحداث بالعواطف داخل تركيب مدهش من الصور المرئية المتتالية، والمشاهد الناطقة المؤثرة، انتقل (النصّ المكتوب) خلالها إلى (نصّ بصري) عبرَ كاميرا الذات، لتُقرأ الرواية – السيرة نسيجاً فسيفسائياً باهرَ الظلال عميقَ وبعيدَ الدِلالة.

الكاتبة – الروائية حياة الرايس في: " بغداد وقد انتصف الليلُ فيها" حالة هوسٍ سيكولوجي بكتابة الذات الباحثة عن ذاتها المتهدمة والطامحة معاً، بلا زخارف ولا لهو استعارات في نسيج بديع من النثري والشعري.. في سردٍ موقظ، تتراوح جملهُ البسيطة وعباراته الرشيقة بين (المكتوب) و(البصري) بمهارة، في لحظة جذب تتداخلُ فيها الأزمنة والأمكنة والأجناس، في سلطة احتواء مثيرة الأبجدية، ليبدو السردُ عابراً للنفوس والأزمان معاً، وتبدو العلاقة مع الذات تمرّ بالعلاقة مع الآخر، وبأدقّ تعبير صورة الـ"أنا" الذات المتشظية مع الآخر، وبوحُ الذاتِ الخفيّ والمعلن هو الشيفرة الدلالية semic code للنصّ السردي.. وفي شاعريته المانحة لحظة تمرّد على الواقعية الفجّة، وصولاً إلى فضاء ساحر جاذب للنصّ.. خليط من التجلّي الكتابي في نمطٍ مقنع من اللعبِ والجدِ، والمرح والمغامرة في لغةٍ طليقة ذي بعدٍ عاطفي وجداني، يخرجُ من خصوصية الذات أحياناً إلى خصوصية الآخر ..!

" بغدادُ وقد انتصفَ الليلُ فيها " بوحُ البوحِ، حين تصبح الذات – الكاتبة نصّها في تماهٍ مثير.. مَن الذي يتحدّث ويقول نفسَهُ ؟ النصّ – المسرود أمْ الذات – الساردة؟ والبطلُ في الحالتين تلقائيةُ وسحرُ الحكي ..!!

وحكاية الذات أوْ كتابتها تعويذة – مقاومة لمعيشٍ قلِقٍ، مضطربٍ، وقاسٍ.. وبلاغة الحكي الجواني الباذخة لحظة احتيال على الزمن ومقاومته.. ! الزمنُ يخدعنا، يُراوغ أحلامنا، يقتلنا.. والحكاية – الحرية صدقنا، وهيّ ما يجعلنا أبديين !

" بغدادُ وقد انتصف الليلُ فيها" نوعٌ من الكتابة السردية – الحفر، ومن طقوس الدخول إلى محرابها الوضوء بالرؤى الطازجة.. وقراءة – الحفر!!